# الحُسَيْنُ فِي مَنْطِقَيْن

## بقلم : يوسف محمد المحميد

جرت طبائع العقل البشريّ على أن يكون للأحداث التاريخيّة الكبرى قراءاتٌ متعدّدةٌ، ومواقفُ متنوّعةٌ بتنوُّع أشكال القراءة للحدث، وكلّما زادت قيمة الحدث زادت القراءات التي تحاول فهمه وتحليله، كما أنّ المشاعر الناتجة عن الحدث تتفرَّع بدورها بتفرّع زوايا النظر إليه، وهكذا حال الشخصيّات التاريخيّة التي تصنع تلك الأحداث، فهي تُقْرَأ بعين المعظِّم والمُهَوِّن، وتُتلى بلسان المادح والقادح، وليس المعظِّمون فريقًا واحدًا يجمعهم فكرٌ واحد، ولا المُهوِّنون أمّةً واحدةً تشدُّهُم عُرَى عقيدةٍ واحدة، بل هم فرقٌ ومذاهبُ وطوائف، لكلٍّ منها دواعيها في التعظيم أو التهوين.

أمّا إذا وصل الأمر إلى أبي الشهداء الحسين بن علي عليه السلام فسترى أنّه من تلك الشخصيّات العظيمة التي تمرّدت على قوانين الفناء، بل إنّه من أولئك الذين علّموا البشريّة أنّ الفناء سبيل البقاء، وكيف يفنى من لا تنفك العقول تحارُ فيه، ولا تبرح نيران الوجد عليه قلوب محبّيه ! وأمام مثل تلك الشخصيّة تتفجّر القراءات وتتوالد النظرات، ليُولَدَ معها الحسينُ ولاداتٍ جديدةً مع كلّ عصرٍ يدوي فيه صدى ذكراه، ولا شأن لنا بالقراءات المهوِّنَةِ القادحةِ فهي لا تكاد تُذكر، وليس لها في ميدان الفكر عينٌ ولا أثر، بل الشأن كلُّ الشأن في تلك القراءات المعظِّمةِ المادحة، فهي التي تملأ وجدان التاريخ، ويعلو صوتها في جنبات الواقع، وهي التي تتنوّع ذلك التنوّع الذي جعلنا أمام حسينٍ واحدٍ بوجوهٍ لا تكادُ تُحْصَر.

لا يشكُّ أحدٌ في العناصر الرئيسة للحدث الحسينيّ، فهو الحسين بن عليّ الذي وقف في يوم العاشر من المحرّم سنة إحدى وستين للهجرة رافضًا ما يعرضه عليه أعداؤه، حتّى قُتِلَ وأهل بيته وأصحابه، وسبيت نساؤه بعد نهب رحاله، هذه هي المادّة الخام للحدث التاريخي، لكنَّ القراءات لهذا الحدث لم تتوقف عن التوالد، حتّى صار الحسين قبلةً للآراء والنظريّات والرؤى، قصدها بفكرهم السياسيّون، وعلماء الدين، والعلوم الإنسانيّة، والفنّانون، والشعراء، بالإضافة إلى القراءات الشعبية التي لا ضابط لنموّها ولا لتطوّرها، فكلّ من سمع اسم الحسين فاشتعلت في قلبه جذوة عشقه؛ وُلِدَتْ في عقله الأسئلة عن أسرار خلوده، وسعى إلى فهم هذا الحدث بما تمليه عليه معرفته وثقافته واعتقاداته، وسنتناول في هذا المقال إحدى القراءات لعَلَمٍ من أعلام المنبر الحسينيّ الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله من خلال إحدى قصائده الرائعة بعنوان "**في ذكرى الحسين**"، وهي قصيدة طويلة نتناول منها الجانب الذي يعنينا في هذا المقام.

يفتتح الوائليّ قصيدته بسؤالٍ يستعين به لفتح ملفات قراءته للحسين عليه السلام قائلًا:

لِـــمْ لَا يَـــلَذُّ عَلَى أَلْحَـــانِيَ السَّـــمَرُ | وَأَنْـــتَ لِي فِي نَشِــــيدٍ حَـــالِمٍ وَتَـــرُ
غَنَّيْـتُ بِاسْــمِكَ فَــاهْتَزَّ الوُجُــودُ إِلَى | دُنْيَـــا يُمَتَّـــعُ فِيهَـــا السَّـــمْعُ وَالبَصَـــرُ

إنّ الوائليّ يضعنا في هذا المطلع أمام حقيقة لبست ثوب السؤال، فالسُّمار يلتذون بحديثه لا لشيء سوى أنه يتغنى باسمٍ ما، ثمّ يبيّن حقيقةً أخرى مفادها تأثُّر كلّ الوجود عند ذكر ذلك الاسم، فذكره يفتح الباب على دنيا من المفاهيم والقيم التي تهزّ أعماق الوجود الإنسانيّ، فما ذلك الاسم العجيب؟ وما تلك القيم التي رآها الوائليّ تهزّ الوجود؟

إِلَى فَــتىً لَــيْسَ مَجْــدُ الــوَاهِبِينَ سِــوَى | قَـــــدْرٍ ضَـــــئِيلٍ إِلَى جَـــدْوَاهُ يَفْتَقِــــرُ
إِلَى البُطُولَـــةِ يُسْتَضْـــرَى بِهَـــا وَهَـــجٌ | وَعْيُ الشُّـــعُوبِ إِذَا اسْتَشْـــرَى بِهَـــا الخَـــوَرُ
إِلَى الصَّــلَابَةِ مِــنْ أَجْـلِ الحَيَــاةِ تَـرَى | حَـــرْبَ المَقَـــادِيرِ أَوْ يَسْتَسْــــلِمَ القَـــدَرُ
إِلَى وَرِيـــفٍ مِـــنَ الأَفْيَـــاءِ رَفَّ عَلَى الـــ | ـضَّـــاحِينَ حَيْـــثُ هَجِـــيرُ البَـــغْيِ يَسْـــتَعِرُ
إِلَى الحُسَــيْنِ وَهَــلْ غَــيْرُ الحُسَــيْنِ إِذَا | مَــا الْتَــاثَ فِكْــرٌ وَضَــاعَ الــوِرْدُ وَالصَّــدَرُ

إنّه -في عينه- العطاءُ الذي يتصاغر أمامَه كلُّ عطاء، وإنّه البطولة التي لا تكتفي بقدح الحماس في الصدور، بل ينتقل أثرها إلى العقول بعد القلوب، فتنير بنارها وعي الشعوب، وهو الصلابةُ التي لا تبسط يد الاستسلام لظروف الواقع الفاسد، بل تواجهه حتّى يستسلم الواقع نفسه لها، وهو الظلُّ الذي يلجأ إليه من أحرقتهم رمضاء الظلم والبغي، إنّه الحسين وكفى، إنّه الحسين الذي أرشد أمّةً تاهت عن موردها، وضيّعت مصدرها، بعد أن وضّحه لها جده وأبوه ... تلك هي القيم وهذا هو الاسم.

ويُردفُ الوائليّ أبياته السابقة بأخرى تُكمِل رسم لوحة انبهاره بهذه الشخصيّة، وهذا الانبهار يؤدي وظيفتين، فهو بظاهره تعبيرٌ عن انفعال الشاعر، وفي حقيقته تقديمٌ لقراءة الشاعر لشخصيّة الحسين، والمبادئ التي صنعت الحدث الحسينيّ، ثمّ يتخلّص بعدها إلى الموضع الذي يُصَـرِّحُ فيه بنظرته إلى ذلك الحدث الجلل، لا من زاوية البُعد التاريخيّ الذي يعرفه الجميع، بل من منطلق واقعٍ تلقّينا لذلك الحدث فيقول:

يُؤْذِيـــهِ أَنَّــــا دَأْبَنَـــــا أَنْ نُطَالِعَـــــهُ | مِـــنْ عَـــبْرَةٍ وَهْـــوَ فِيمَـــا يَحْتَـــوِي عِـــبَرُ

إنّ هذا البيت يشكّل عند الوائليّ مفتاح فهم الحسين عليه السلام، ومبتدأ تحليل الحدث الحسينيّ، فهو يقرّر فيه مدى الضـرر الذي ألحقته النظرة إلى الحسين من منطق "العَبْرَة"، ذلك المنطق الذي لا يرى في الحسين سوى ذلك الرجل المكسور المظلوم، ولا يعرف التعبير عنه إلا بلغة العين الباكية، بينما الحسين في منطق "العِبْرَة" حسينٌ آخر، ولذا كان لا بد من إعادة تصويره من جديد بعيدًا عن تقاليد الشعر الحسينيّ، ولعلّ هذا هو السبب

في اختلاف قصيدة الوائليّ -ومن قبله الجواهريّ في عينيته- عن بقية قصائد الشعر الحسينيّ، وسيتبين ذلك عندما ننظر في بقيّة أبياته.

لَوْ شِـئْـتُ قُلْـتُ: وَمَا زَهْوُ الفُتُوحِ سِـوَى ... دُنْـيَـاكَ ، إِنَّـكَ دُنْـيـا مِـلْـؤُهَـا ظَـفَـرُ
لَـقَـدْ رَأَيْـتُـكَ فِـيـهَـا أَلْـفَ قَـادِمَـةٍ ... تَـهْـوَى الشَّـــوَاهِـقَ إِذْ تُـســتَـوْبَـأُ الحُـفَـرُ
وَمَـارِدًا زَحَـمَ الإِعْـصَـارَ مَـنْـكِـبُـهُ ... حَـتَّى لَـوَاهُ، وَمَـا أَلْـوَتْ بِـهِ الـغِـيَرُ
وَفِـكْـرَةً تَـسْـتَـشِـفُّ الـغَـيْـبَ مَـا وُهِـبَـتْ ... إِلَّا لِـتَـخْـلُـدَ ، والـطُّـغْـيَـانُ يَـنْـتَـحِـرُ
مَـا ضَرَّهَـا وَهْيَ تَـرْجُـو كُلَّ عَاقِـبَـةٍ ... إِذَا تَـعَـجَّـلَ مِـنْ لَذَّاتِـهِ أَشِرُ
قَـدْ يَخْـدَعُ الـوَهْـمُ سَـكْـرَانًا فَـيَـجْـعَـلُـهُ ... يَـظُـنُّ أَنَّ الَّذِي فِي كَـأْسِـهِ الـقَـمَـرُ

في هذا المقطع يبدأ شاعرنا في رسم الصورة الجديدة، صورة الحسين بعد شهادته، فهو الفاتحُ الظافرُ، المُحلِّقُ في العلياء تاركًا الحفر الملوّثة بكل أشكال الذلّ والخنوع، وهو الذي تمرد على كلّ عوامل التغيير والتبديل عبر العصور، فالزمان يهوي تحت أرجله، وهو واقفٌ بكلّ شموخٍ وعزّة، وهو المدرسة الفكريّة التي نفذت في أعماق الغيب لتكتشف سرّ الخلود، ولتزرع في الزمن بذور ثوراتٍ تقضّ مضجع الطغيان، وهو الذي لم يؤثّر فيه العطشُ والقتلُ والتمثيلُ وكلُّ ما جرى عليه وعلى أهل بيته وأصحابه، فما جرى عليه حدثٌ صغيرٌ -مع فداحته- بالنسبة إلى نفسه العاشقة للخلود، وأشبه حال بهذا قول أبي الطيب المتنبي:

وَإِذَا كَانَـتِ النُّـفُـوسُ كِـبَـارًا ... تَـعِـبَـتْ فِي مُـرَادِهَـا الأَجْـسَـامُ

نعم إنّ هذا الحسينَ العزيزَ هو الحسينُ نفسه الذي صوّره رواة التاريخ والشعراء في كلّ جزئيات مصيبته، لكنّه الآن يُقرَأُ من زاوية أخرى لم يهملها الشعراءُ قبلَ الوائليّ ولكنّهم لم يجذّروها في نفوس متلقّيهم كما جذَّرها شاعرنا، وليؤكّد منطق العِبْرَة؛ يعيد الشيخ المرحوم قراءة بعض مفردات المصيبة بعينِ منطقهِ فيخاطب الحسين بهذه الأبيات:

أُنْبِئُـــكَ أَنَّ دَمًـــا أَهْرَقْـــتَ أَلْوِيَـــةٌ ... ثُـــمَّ إِذَا مَـــا اسْـتَحَرَّ الخَطْـبُ تَنْتَشِـــرُ
وَلَـــوْعَةً فِي رَضِـيـعٍ أَثْكَلُـــوكَ بِـــهِ ... وَجَبْهَـــةً وَسَــمُوا أَوْ خِنْصِـــرًا بَـــتَرُوا
قَـــذَائِفٌ قَـــدْ أَدَالَـــتْ مِـــنْ عُرُوشِـــهِمُ ... وَرُحْـــتَ وَحْـــدَكَ فِي المَيْـــدَانِ تَنْتَصِـــرُ
فَـــارُوا الخُلُـــودَ فَمَـــا كَانَ الخُلُـــودُ سِـــوَى ... وَثِيقَـــةٍ وَقَّعَتْهَـــا بِاسْـــمِكَ العُصُـــرُ

في المقطع السابق نرى مفردات المصيبة -التي تفنَّن الشعراء في وصفها- تنقلب أسلحةً تُشْهَر في وجوه الظالمين! فالدماء ألوية يرفعها المظلومون في وجه الطغاة باسم الحسين، وبقية المصائب ما هي سوى قذائفَ قَصَفَ بها الحسين معاقل البغي والظلم، وهي أسلحةٌ عابرةٌ للزمان والمكان، موجّهةٌ نحو الطغيان بما هو مفهومٌ يتجلّى في مصاديق لا حصر لها عبر التاريخ، إنّنا الآن أمام حسينٍ لم يمت، وأمام ثورةٍ لا تنتهي، وأمام حدثٍ تاريخيّ يأبى أن يسكن في الزمن الماضي، بل إنّه بات قادرًا على الخلق، خلقِ كلمة "لا" في صدور المظلومين، وخلق الجرأة على نطقها في وجه كلّ سلطانٍ جائرٍ، إنّنا أمام هذه النظرة لا نبكي بالدموع فقط، بل نبكي على الحسين كما بكى صفيُّ الدين الحلّي خالَه المغدور:

لَـمْ أَبْـكِ بِـالحُزْنِ الطَّوِيـلِ تَمَلُّقًـا ... حُـزْنِي عَـلَـيْـكَ وَقَـائِـعٌ وَحُـرُوبُ
فَـلَأَبْـكِـيَـنَّـكَ بِـالصَّـوَارِمِ وَالقَـنَـا ... حَـتَّى يُحَـطَّـمَ ذَابِـلٌ وَقَضِـيـبُ

إنَّ الوائليّ في هذا النصّ لا يدعو إلى الكفِّ عن البكاء على المصيبة، أنّى وهو الذي أشجى النفوس وصَدَّعَ القلوبَ وأبكى العيونَ في مسيرته الطويلة على صهوة المنبر، ولكنّه يدعونا إلى أن نضمّ العِبْرَةَ إلى العَبْرَة، ويبشّرنا بنوعٍ جديدٍ من الحزن على الحسين، نوعٍ لا يتخذ من ماء العيون جسدًا له، بل يتجسّد في قولنا "لا" لكلّ فسادٍ وظلمٍ حاربه الحسين حتى استشهد في سبيل إصلاحه، وقد ضمَّن قصيدته مقطعًا طويلًا تحدّث فيه عن حال الأمة في العصر الحاضر، وهي تتذبذب بين خطابٍ يسجن الحسين في الدموع، وخطابٍ ينفي كلَّ القيم التي دعا إليها الحسين، ثم يدعو النشء الجديد إلى عودةٍ واعيةٍ إلى القيم الإسلاميّة التي جسّدها الحسين، وهو مقطع لا مجال لذكره وتفصيله، لكنّه يعود في نهاية رائعته ليوجّه خطابه مرّةً أخرى إلى أبي الشهداء، ويعيد ذكر المصائب مرّةً أخرى بالمنطق نفسه قائلًا:

سَـقَيْتُ ذِكْـرَاكَ وَالصَّـهْبَاءُ قَافِيَـةٌ ... هَـذِي الوُفُـودَ فَمَـا ذَنْـبِي إِذَا سَـكِرُوا
وَطَـالَعَتْهُمْ -وَمَـا أَسْـمَى الجَـلَالِ بِهَـا- ... رُؤَاكَ فِي جَنَبَـاتِ الحَفْـلِ تَنْتَشِـرُ
هُنَـا يُلَأْلِـئُ -يَـا للـنَّجْمِ- مُنْتَصِـبًا ... مِـنَ الشُّـمُوخِ جَبِـينٌ شَـجَّهُ الحَجَـرُ
وَهَـا هُنَـا يَشْـجُبُ الظَّلْمَـاءَ مُنْبَلِجًـا ... ثَغْـرٌ تَشَـظَّى عَلَيْـهِ العُـودُ يَنْكَسِـرُ
وَهَـا هُنَـا قَـدَمٌ سَـارَتْ وَمَـا عَـثَرَتْ ... فِي حِـينِ عَافَ السُّـرَى بِـالدَّرْبِ مَـنْ عَـثَرُوا
وَهَـا هُنَـا وَعَلَيْـهِ النَّبْـلُ أَوْسِـمَةٌ ... صَـدْرٌ يُحَـلِّي العَـوَالِي مِنْـهُ مُشْـتَجَرُ
وَهَـا هُنَـا أُشْرِعَـتْ مَخْضُـوبَةً بِـدَمٍ ... كَفَّـاكَ تَلْطِـمُ خَـدًّا كُلُّـهُ صَـعَرُ
وَهَـا هُنَـا وَهُنَـا مِـنْ جَانِحَيْـكَ مَشَـتْ ... رُوحٌ تَوَثَّـبُ كَالـبُرْكَانِ يَنْفَجِـرُ
مِنْهَـا نُسِـجَتْ فَلَـمْ لَا يَـزْدَهِي نَغَـمِي ... "وَأَنْـتَ لِي فِي نَشِـيدِ خَـالِمٍ وَتَـرُ"

عجيبةٌ تلك الأبيات، فقد تضمّنت المصيبة وفظاعتها، فجبينٌ مشجوجٌ بالحجر، وثغرٌ مقروعٌ بالمخصرة استهزاءً، وأقدام تسير إلى حتفها، وصدرٌ شكّته السهام وتكسّرت عليه الرماح، وكفٌّ ممدودةٌ صبغتها الدّماء، لكن -وفي الوقت نفسه- ظهر أمام كلّ مصيبةٍ جانبها المشرق حسب منطق العِبْرَة، فالجبين شامخٌ بعزّةٍ فوق الرّماح دلالةً على الإباء، والثَّغْر المقروع ينبلج منه النور ليشجب الظلم من دون أن يتكلّم، والأقدام السائرة إلى الموت لم تعثر كما عثرت أقدام من تركوا المسير، والنبل على الصدر وسام فخر، أما الكفّ فهي إنما تمتدّ لتصفع خدًّا صعَّره الطغيان والظلم.

إذن فالمنطقان -منطق العَبْرَة ومنطق العِبْرَة- ليسا نقيضين، ولا يُزاحِم أحدهما الآخر حتى نقول بوجوب ارتفاع الأول عند حضور الثاني أو العكس، بل هما يتكاملان في رسم شخصيّة الحسين، ذلك العزيز الذي خيّروه بين الحياة ذليلًا -وهي الموت-، وبين الموت عزيزًا -وهو الحياة- فاختار ما شاء الله له اختياره لا ما شاء له قاتلوه، فقد أرادوا أن يُمعِنُوا في إذلاله بعد قتله، فأَمْعَن في محاربتهم وهو في قبره، فحُقَّ للعين أن تبكي مرّتين، مرّةً بدموع الحزن واللوعة مما جرى عليه، وأخرى بدموع الفخر والعزّة بما جاء به، وإذا كنت في شكٍ من أمر دموع الفخر، فاسمع قول محمد الحرزي في إحدى قصائده القديمة:

فَيَـا عَبَّـاسُ لَا أبْكِيـكَ مِـنْ كَمَـدٍ ... وَلَا أَبْكِـي مُصَـابًا أَنْقَـضَ الظَّهْـرَا
وَلَكِـنَّ البُـكَا مِـنْ عَـيْنِ نَشْـوَانٍ ... رَأَى مَجْـدًا عَلَى نَعْلَيْـكَ قَـدْ خَـرَّا